كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: السابعة

أستاذ المادة : أ.م .د. نوفل حامد عبد الرحمن عمران الهيتي

اسم المادة باللغة العربية : انتشار الاسلام في افريقيا

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Spread of Islam in Africa

اسم المحاضرة السابعة باللغة العربية: معاهدة البقط وعلاقة العرب بالبجيين والنوبيين والفونج

اسم المحاضرة السابعة باللغة الإنكليزية The Treaty of Al-Baqt and the relationship of the Arabs to the Buji, the Nubians and the Funj

محتوى المحاضرة السابعة

ثالثا: العرب المسلمون في سودان وادي النيل (معاهدة البقط)

ان صلة العرب بهذه المنطقة، لا سيما منطقة النوبة، ضاربة في القدم، ومما يؤكد ذلك التشابه العرقي واللغوي بين بعض شعوب هذه المنطقة وسكان شبه الجزيرة العربية، بل ان البحر الأحمر الذي فصل بين افريقيا وآسيا لم يشكل في أي وقت من الاوقات عائقا للاتصالات العربية بالشعوب التي تقطن الساحل الغربي للبحر الاحمر . وذكر المقريزي ان ملوك المقرة المسيحية، التي كانت تسيطر على جزء كبير من سودان وادي النيل منذ القرن السابع الميلادي حتى القرن الخامس عشر الميلادي، كانوا من اصل عربي حميري .. ومهما كانت صحة هذه الانباء فانها تعكس في اقل تقدير صدى هجرة حميرية مكثفة . من جنوب شبهه الجزيرة العربية إلى أفريقيا.

ومن الجدير بالذكر ان شبه الجزيرة العربية لم تكن المصدر الوحيد للهجرات العربية إلى حوض النيل وانما كانت هناك طرق أخرى وصل العرب عبرها الى هذه المنطقة، منها الباب الشمالي (مصر) الذي يفضي الى مجرى النيل، والطريق الشمالي الغربي او الطريق الليبي. اضافة الى الطريق الشرقي (الجزيرة العربية) الذي كان المصدر المباشر للهجرات العربية الى هذه المنطقة اما الطريق من مصر فليس اقل اهمية بوصفه مصدرا في نشر الحضارة العربية الاسلامية في منطقة سودان وادي النيل.

ومهما كانت الطرق والمنافذ التي وصل العرب الى سودان وادي النيل فان الوجود العربي ازداد كثافة بعد ظهور الاسلام وفتح العرب لمصر. وكان سكان هذه المنطقة قبل الاسلام من النوبين والبجيين في قسمها الشمالي، بينما غلب على الاقسام الجنوبية والجنوبية الغربية خليط من الشعوب السوداء شبه الزنجية. أما الهيمنة في هذه المنطقة فكانت لثلاث ممالك مسيحية يمتد نفوذها السياسي من الشلال الاول منطقة سنار على ضفاف النيل الازرق، وأولى هذه الممالك مملكة المريس او نوبا ديا وعاصمتها فرص، والثانية مملكة المقرة (النوبة السفلى) وعاصمتها دنقلا . اما المملكة الثالثة فهي مملكة علوة وحاضرتها سوبا. والمعروف ان منطقة . وادي النيل قد

دخلتها المسيحية عن طريق مصر حيث انتشر فيها المذهبان الملكاني واليعقوبي، وما ان حل القرن السادس الميلادي حتى كانت المسيحية قد ضربت بجذورها في المنطقة وصارت الدين الرسمي لهذه الممالك الثلاث .

فما ان ظهر الاسلام ودخلت الجيوش العربية الى مصر لتحريرها حتى وقفت عند ابواب النوبة. ومن اجل تأمين حدود مصر الجنوبية من هجمات النوبة والبجة الذين اعتادوا شنها أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) واليه على مصر عمرو بن العاص يوضع حد لها فارسل سرية بقيادة عبد الله بن سعد بن ابي سرح . سنة ٢١هـ/ ٦٤١ م فوضعوا حاميات بين مصر والنوبة لمنع النوبيين من الدخول الى مصر. ولما تولى ولاية مصر ارسل حملة الى النوبة سنة ٣١هـ/ ٦٥١م فوصلت الى دنقلا عاصمة النوبة ودارت معركة لم تنته الى نتيجة فاصلة، الا ان استخدام العرب المسلمين للمنجنيق وهو سلاح لم يعرفه النوبيون قد ادخل الرعب في صفوف الاخيرين فطلبوا الصلح. اما المسلمون فقد كانت المقاومة للنبويين وبعدهم عن ديارهم سبباً في ميلهم الى قبول الصلح، هذا اضافة الى ان هدف العرب في هذه الحقبة كان وضع حد لهجمات النوبة على صعيد مصر فقط. كل هذه الأسباب جعلت ابن ابي سرح يرحب بعقد الصلح مع النوبيين، وعرف ذلك الصلح في الروايات التاريخية وكتب الفقه بعهد النوبة ومعاهدة البقط .

وكانت هذه المعاهدة معاهدة سياسية وتجارية بين مصر الاسلامية وممكة النوبة المسيحية اشترط فيها عدم اعتداء اي طرف على الطرف الآخر، وبمبدأ حرية التجارة للعرب وتبادل المنافع التجارية بين المسلمين والنوبيين حيث تعهد النوبيون بحماية مصادر الذهب مقابل ترك العرب لهم دون تهديد لأمنهم، كما كفلت المعاهدة حق الترحال لرعايا كل منها في البلد الآخر، مجتازين غير مقيمين مع مراعاة حرية العبادة. وقد فتح هذا التعهد بلاد النوبة للتجار المسلمين الذين استطاعوا خلال حركتهم التجارية وتوغلهم النشيط الى اعماق بلاد النوبة وما وراءها ان ينشروا عقيدتهم. وعلى الرغم من ان هؤلاء التجار كانوا منصرفين لاعمالهم التجارية الا انهم كانوا روادا في نشر العقيدة الاسلامية لا سيما ان المعاهدة سمحت لهم بتشييد مجد للمسلمين في النوية السفلي، وهذا مهد السبيل الى نشر الاسلام، كما ان التجار العرب قد استطاعوا باقامتهم في هذه المنطقة من اكتساب المعرفة باحوالها وطبيعتها فكانوا بذلك قد مهدوا الطريق لهجرة القبائل العربية باعداد كبيرة بمرور الزمن .

ان معاهدة البقط هي التي ت تحكمت في العلاقة بين مصر وبلاد النوبة مدة تقارب ستة قرون، دونما تغير جوهري في مضمونها، وضمن هذه المدة، وفي ظل هذه الاتفاقية، تسربت المؤثرات العربية الاسلامية في هدوء

وبطء الى بلاد النوبة الأمر الذي ادى في النهاية الى تغيير مصير سودان وادي النيل السياسي والاجتماعي والديني.

وعلى الرغم من ان الاتفاقية لم تنص على السماح للمسلمين بالاستقرار في بلاد النوبة، فقد اخذت بعض القبائل العربية في شراء الاراضي في منطقة النوبة (ولا سيما في منطقة المريس) منذ اوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وعلى الرغم من احتجاج ملك النوبة المتواصل، فقد بدات القبائل بالاستقرار والتزاوج مع سكان المنطقة، واليها يرجع الفضل في نشر الاسلام بين النوبيين. ولعل في مقدمة هذه المجموعات كانت قبيلة بني الكنز وهم فرع من قبيلة ربيعة العربية العدنانية المشهورة، حيث وطد هؤلاء نفوذهم في اسوان في القرن الخامس للهجري / الحادي عشر للميلاد واخذوا في التوغل جنوبا معتمدين في توسع نفوذهم السياسي على مصاهرة السكان المحليين من اهل النوبة والبجة. وقد استطاع بنو الكنز عن طريق اما عن مصاهرتهم للاسرة الحاكمة في دنقلا (عاصمة النوية السفلي) من اعتلاء عرش النوبة فيما بعد، ونشر الاسلام في المنطقة .

مما تجدر الاشارة اليه، انه على الرغم من ان انتشار الاسلام الواسع لم يتم الاعقب سقوط ممالك النوبة المسيحية، الا ان وجود هذه الممالك لم يحل دون انتشار الاسلام وانتقال المؤثرات العربية الى السودان، ولا سيما ان الهجرة العربية كانت تأتي من الشمال فتجتاز النوبة بمسيحيتها وجنادلها وتدخل منطقة الاقاليم الجنوبية، كما كانت الهجرات العربية تقدم من جهة البحر الأحمر ؟ كما اشرنا سابقا.

اما عن علاقة العرب المسلمين بالبجة، فالذي يبدو ان البجة كالنوبة اعتادوا على شن غزوات على صعيد مصر كلما واتتهم الفرصة. وقد افلح المسلمون من ردعهم ثلاث مرات بطريقة حاسمة، فيروى ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح قد اخضع البجة المجاورين لاسوان واسلم بعضهم. وفي بداية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي اصطدم بهم عبيد الله بن الحبحاب خازن بيت المال في مصر وفرض عليهم معاهدة بعد أن هزمهم. وقد وضعت هذه المعاهدة حدا لتحرشات البجة على صعيد مصر وساعدت في الوقت نفسه على فتح تلك المنطقة لدخول المؤثرات العربية الاسلامية وخاصة الوافدة عبر البحر الأحمر .

وفي عهد الخليفة العباسي المأمون كرر البجة اعتداءهم على مصر عبد الله بن الجهم عامل الخليفة على مصر وفرض على قائدهم كنون بن عبد العزيز معاهدة ثانية تؤكد الالتزام السابق وتضيف ضرورة محافظة البجة على المساجد التي فحاربهم المنطقة انشأ اول حتى شيدها المسلمون وهذه الاتفاقية تشابه من وجوه كثيرة معاهدة البقط التي عقدت . مع مملكة النوبة المسيحية . وفي اثناء حملة عبد الله بن الجهم هذه اكتشف العرب الذهب والزمرد في ارض المعدن من بلاد البجة فتدفق الناس في اعداد كبيرة من مصر بصورة متتابعة، ولعل اهم القبائل

العربية التي هاجرت واستقرت حول مناجم الذهب عرب جهينة وربيعة ومضر واستطاع احد العرب وهو عبد الله بن عبد المجيد العمري الذي اشتغل بالتعدين في منطقة البجة ان يزيد من نفوذه في ا امارة عربية في شمال شرق السودان - في منطقة وادي العلائي . وهكذا يبدو ان هذه الحملة اثرت تأثيرا كبيراً في النفوذ الذي بلغه في العرب في بلاد البجة. ومما لا شك فيه ان استقرار بعض الجماعات العربية واستغلالهم مناجم الذهب في العلاقي ادى الى النشاط والازدهار التجاري في المنطقة وان قبيلة ربيعة قد اصبح لها نفوذ في ارض المعدن بعد ان صاهرت البجة وقوت من نفوذها في المنطقة، كما قامت بدور هام في الاسلام ايضا .

استمر اهتمام العرب المسلمين بارض المعدن وازدادت الهجرة الى المنطقة ومنها توغل العرب جنوبا، بل يمكن القول ان النشاطات الاقتصادية والمتمركزة في ارض البجة كانت بمثابة المراحل الاعدادية التي مهدت السبيل الى الهجرة العربية الى السودان .
ظلت معاهدة البقط، تنظم المسلمين في النوبة امدا طويلا، ولم تحاول الدول المتعاقبة على مصر ان تتدخل في الشؤون الداخلية لمملكة النوبة المسيحية. ظل النوبيون محتفظين باستقلالهم حتى قيام دولة - العلاقة بين مصر وبلاد السلطة والجيش المماليك في مصر عام ١٢٥٠م. ففي خلال هذه المدة قام صراع بين المماليك والقبائل العربية في مصر، وذلك لأن المماليك ابعدوا القبائل العربية عن وقدموا الاتراك عليهم. واستمر هذا الصراع حتى القرن الخامس عشر الميلادي وكانت أهم نتائجه التي تهمنا هجرة الكثير من القبائل العربية من مصر وسيرها جنوبا الى أرض السودان ولذا فقد شهدت النوبة تدفق الهجرات العربية اليها، ولم ينعزل المهاجرون عن اهالي المنطقة وانما اختلطوا بهم وتزاوجوا معهم مما ترتب على ذلك قوة المؤثرات العربية عليهم .

كما شهد عصر المماليك تدخلا عسكريا في شؤون بلاد النوبة حيث ارسلت عدت حملات من قبلهم الى المنطقة. وقد ادت حملة العام ١٢٧٦ الى نهاية الاستقلال السياسي المستقل لبلاد النوبة، وصارت دولة تابعة لسلطان مصر حيث أصبح حاكمها (واسمه شكندة) يحكم بلاد النوبة نيابة عن سلطان مصر. وكانت الانقسامات الداخلية في مملكة النوبة المسيحية قد ادت الى سير هذه المملكة نحو الزوال ايضا. واخيرا وفي عام ١٣٢٣ اعتلى عرش النوبة كنز الدولة (من بني كنز من بني ربيعة) فصارت المملكة عربية اسلامية، وانتهى بذلك مملكة النوبة المسيحية التي كانت تحول دون دخول العرب الى السودان عن طريق وادي النيل بأعداد كبيرة .

بسقوط مملكة النوبة المسيحية اندفع العرب من صعيد مصر نحو الجنوب واتجهت مجموعات أخرى عبر الصحراء الشرقية الى ارض البجة التي كانت مسرحا لنشاط اقتصادي عربي ادى ال انتشار الاسلام فيها ثم ساروا جميعا حتى بلغوا ارض البطانة والجزيرة وعبر بعضهم النيل الى كردفان وسارت موجات اخرى من المهاجرين العرب الى شاطئ النيل الغربي فوادي المقدم اي وادي الملل حتى كردفان ودارفوا .

كان للهجرات العربية التي كان لها الدور في زوال مملكة النوبة المسيحية الأثر نفسه في القضاء على مملكة علوة المسيحية ايضا. ترجع صلة العرب بهذه المملكة إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي حيث تردد العرب الى سوبا (عاصمة علوة) بقصد التجارة. وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي اقامت مجموعات عربية في هذه المنطقة جذبتها المراعي الخضراء الواسعة في علوة الى الاستقرار فيها، وقد ازدادت هجرات العرب الى هذه المنطقة بعد حملات المماليك العسكرية إلى بلاد النوبة. ولما كثرت أعداد العرب الوافدين الى مملكة علوة وازدادت قوتهم وتم اتحاد المجموعات المهاجرة تحت زعامة احد العرب المسمى عبد الله جماع، شيخ قبيلة العبدلاب العربية، استطاعوا القضاء على مملكة علوة المسيحية وذلك في اواسط القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي لم ينفرد العبدلات طويلا بحكم البلاد اذ شاركتهم جماعة اخرى عرفت باسم الفونج وفدت من اعالي النيل الازرق، واستطاع الفونج واصلهم عرب تزوجوا من ملوك السودان ان يؤسسوا سلطنة اسلامية في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، بزعامة (عمارة دنقش).

اتخذ عمارة دنقش من سنار عاصمة لحكمه وأصبحت معظم الاراضي الواقعة بين النيلين الابيض والازرق الى حدود الحبشة تابعة له. اما خليفة عبد العبدلاب فقد اتخذ من قرى عاصمة المشيخة التي عرفت باسم مشيخة العبد لاب وبقي في الوقت نفسه وكيلا لعمارة دنقش على السودان الشمالي حتى حدود مصر وقد كان للفونج دور نشيط في نشر العقيدة الاسلامية باساليب سليمة وتحويل القبائل الوثنية الافريقية الى الاسلام بالتدريج.

والجدير بالملاحظة ان القرن السادس عشر الميلادي كان يعد بحق عصر تأسيس السلطنات الاسلامية في سودان وادي النيل (الفونج - العبدلات - دارفور) وهذه الاخيرة اسسها سليمان سولونج العربي، وهو من قبائل بني هلال رحل الى منطقة دارفور من بحيرة تشاد وتزوج ابنة حاكم المنطقة الوثني، ثم اعتلى عرش البلاد بعد ذلك واقام سلطنة اسلامية فيها امتدت ما بين عام ١٦٣٨-١٨٧٥ م. توثقت علاقة السلطنات والممالك التي نشأت في سودان وادي النيل بمصر والمغرب وبغداد وتوافد كثير من السودانيين على مراكز التعليم الاسلامية لاستكمال تعليمهم.

كما اسهمت الطرق الصوفية بنشاط كبير في تثبيت دعائم الاسلام في تلك الجهات وبرزت كثير من الطرق الصوفية كالخلواتية والقادرية والشاذلية والميرغنية. كما ظهرت حركة علمية في عهد دولة الفونج كان مصدرها مصر والحجاز وبلاد المغرب والعراق وغيرها، بفعل هجرة العلماء المسلمون الى مناطق سودان وادي النيل حيث يجدون رعاية من حكامها، فكان لهذا اثره الكبير في نشر الثقافة العربية الاسلامية في تلك البلاد